الحوار المسكوني في آيتين

إعداد أسرة التراث الأرثوذكسي

لقد عبرنا الفصح بنعمة الله، وكما في كل عامٍ، تعالَت أصوات أبناء الكنيسة الداعين إلى "وحدة" المسيحيين، سواء أدركوا معنى هذه "الوحدة" التي ينادون بها، أو اقتصر فهمهم لها على "توحيد" العيد. وها نحن الآن نقترب من عيد العنصرة، حين يدعو الروح القدس "الكل إلى اتحادٍ واحد". فما سبيلنا إلى هذا الاتحاد؟

اليوم تكثر اللقاءات المسكونية التي يرجو البعض أنها السبيل إلى الوحدة المنشودة. ففي هذه اللقاءات -على حد تعبير المتحمسين لها- نلتقي ونتحاور جميعنا، نحن المسيحيين بمختلف طوائفنا، في تفاهمٍ تامٍ حول "ما يجمع" وليس "ما يفرق".

ولكنْ، هل الحوار حول النقاط المشتركة والتغاضي عن الاختلافات الجوهرية هو تحقيقٌ لدعوة ربنا يسوع المسيح لنا لنكون واحداً؟ هل طرحُ الاختلافات ومناقشتُها منافيان لمبدأ المحبة؟

فيما بين الفصح والعنصرة، تتوقف بنا الكنيسة المقدسة عند أحد السامرية، الذي يقدم فيما يقدم نموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه "الحوار المسكوني" الحقيقي الذي يوحّد ويخلص. هو حوارٌ بين سامريةٍ و"يهودي"، يجمعهما إيمانٌ بإلهٍ واحدٍ وبعضِ أسفارِ الكتاب المقدس. وانطلاقاً من هذا الإيمان، نرى السامرية تسأل يسوعَ تحديداً عن نقطة الخلاف بين السامريين واليهود: "آباؤنا سجدوا في هذا الجَبلِ وأنتم تقولون إنَّ المكانَ الذي ينبغي أن يُسجَدَ فيهِ هُوَ في أورشليم" (يوحنا ٤:٢٠)

لم يأت جوابُ يسوع على هذا التساؤل الجادّ "مسايرةً" للمرأة بتحويل الحوارِ إلى دردشةٍ حول إيمانهما بالمشترك بإله الآباء، بل كان بصريح العبارةِ تأكيداً على الحقِّ الذي امتلكه اليهود في ذلك الوقت وضلَّ عنه السامريون: "أنتم تسجُدونَ لما لا تعلمون ونَحنُ نسجُدُ لما نعلَم، لأنَّ الخلاصَ هُوَ منَ اليهود" (يوحنا ٤:٢٢)

ما كان ربنا ليقول لها في ذلك الحين: "دعينا من هذه الخلافات القديمة، فإلهنا وإلهكم واحد، ويعقوب أبٌ لنا ولكم على حدٍ سواء".. فموقفٌ كهذا ما كان ليغير في إيمانها شيئاً، بل كان ليجعلها، في أفضل الأحوال، تنظر إلى يسوع كما تنظر إلى أي سامريٍ آخر، فيتحقق بذلك وفاقٌ اجتماعيٌ عاطفيٌ لا أكثر. لكنْ، حاشا لربنا أن يكون داعيةً لمثل هذا الوفاق والسلام الوهميين: "سلاماً أترك لكم سلامي أعطيكم ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا" (يوحنا ١٤:٢٧)

فهل خرج ربنا بذلك عن المحبة؟ من يحبّ الآخر بالحقيقة ويشتاق لخلاصه يبشره بالحق، وبالحق وحده.

انتهى الحوار عند بئر يعقوب بتحوّل السامرية إلى مبشرةٍ بالمسيا المخلص ورسولةٍ إلى "أبناء طائفتها" من السامريين، الذين أتوا بدَورِهم إلى المسيح من أجل كلامها أولاً، وآمنوا فيما بعدُ حين عاينوا بأنفسهم ثانياً.

فأين نحن اليوم من هذا الحوار؟